مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد10/ العدد: 3 (2022)، ص: 1348-1367

فلسفة السخرية في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري:

The philosophy of irony in the message of forgiveness for Abu Alaa Al-Maari.

حنان بن قيراط[1].

[1] جامعة 08 ماي 1945، قالمة (الجزائر)،

Benkirat.hanane@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2022/08/10 تاريخ القبول: 2022/09/19 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخّص:

تسعى هذه الدراسة لتناول جانبٍ من موضوع السخرية عند أبي العلاء المعري في رسالة الغفران، ردًّا على رسالة ابن القارح، إذ نجد فيها جوانب ساخرة وتهكّمية قائمة على الحجاج والعقل، ذلك أن السخرية إحدى الطرق لتغيير الواقع وأحد أشكال المقاومة التي لا تقصد الإضحاك فقط بل لها أهداف وغايات ضمنية عديدة في قالبٍ هزليّ فاخرٍ... وقد اخترنا من رسالة الغفران بعض النماذج التي تدلّ على ذلك في شكلها ومضمونها، وقد شملتْ العديد من الجوانب الفكرية والفلسفية التي تنوّعتْ فيها مواضع وطرق التهكّم عنده فيها.

ويُعتبر استخدام السخرية في رسالة الغفران عند أبي العلاء المعري آليةً حجاجية يقوم عليها الفكر الفلسفي عنده، وقد اعتمدها لدفع العقل للتفكير والتدبير بحسنٍ وعقلانيةٍ، حتى بلغ في هذه الرسالة ذروة السخرية، ما رفعه إلى مصاف الساخرين العالميين الكبار ولما تميّزت به هذه الرسالة من روعة الخيال وعبقرية السخرية المبدعة.

كلمات مفتاحية: السخرية، التهكّم الفلسفي، رسالة الغفران، أبو العلاء المعري.

Abstract:

This study seeks to address an aspect of the subject of irony in the message of forgiveness for Abu Alaa Al-Maari in response

to Ibn al-Qarih's message, As we find in it satirical and ironic aspects based on arguments and reason, that is because sarcasm is one of theways to change reality and a form of resistance that not only spoils laughter, but also has implicit many goals and objectives in a satirical form… And we have chosen some models that demonstrate this in their form and content, it included many intellectual and philosophical aspects in which he had varies positions and ways of sarcasm.

The yse of irony in the message of forgiveness for Abu Alaa Al-Maari is considered an argumentative mechanism upon which philosophical thought is based, and he has adopte dit to push the mind to think and measure well and rationally, Even reached in this message tge height of irony. What raised him to the ranks of the great international satirists, and splendor of imagination and the genius of creative irony**.**

Keywords: Irony, philosophical sarcasm, the message of forgiveness, Abu Alaa Al-Maari.

***المؤلف المرسل:** حنان بن قيراط.

1. مقدمة:

امتاز أبو العلاء المعري بنقده الساخر وقدرته الهائلة على التعبير عن مختلف القضايا والأمور بأسلوبٍ رائعٍ، حين يستحضر تعابير بليغة تصحبها سخريةٌ هادفةٌ تقوم على تمازجٍ بين الألفاظ المألوفة والمعاني غير المتوقّعة يكون لها وقعٌ في النفوس، وقد يرتبط ذلك ببراعةٍ في تصوير المشاهد وسرد حال المواقف. وبذلك فهو يشير إلى روحه الساخرة في ثنايا ما كَتَبَه فيها لتكون فقط عيّنة من أدبه الساخر. وهو في ذلك يشبه الجاحظ في سخرياته المقنّعة بالجد والمتعالية عن الكثيرين من عامة الناس. وقد حاول هذا المبدع أن يفرَّ من سجونه الغائمة والمظلمة إلى الجحيم والجنة ليتحدّث هناك بحريةٍ ويعطي رأيه بكل ما في الحياة

حوله، وقد جعله هذا أبعد ما يكون عن هوس الدنيا وفتنتها للميل إلى الفلسفة والحقيقة الإنسانية بالتجرّد والعزلة، حتى أصبح اتّساع عقله الرحب المتفتّح ووجدانه الخصب الممتلئ لكلّ ما يشمل الآخرين صفةً من أبرز صفات أبي العلاء المعرّي وتوجّهاً أساسياً يفيض عنه مثلما يظهر في مختلف إبداعاته وآثاره.

ومن هنا سنحاول دراسة فلسفة السخرية في رسالة الغفران وبيان ذلك، من خلال إثارة مجموعة من الإشكاليات منها:

كيف تتجلى السخرية في رسالة الغفران؟ كيف يركّز المعري على إبداء المفارقات في رسالة الغفران؟ ما الدور الذي تؤديه هذه السخرية؟ ما مدى نجاعتها في تغيير السلوك والمواقف من خلال استعمال طرق الحجاج فيها؟

1. تعريف السخرية:

1. 2 لغةً:

السخرية من الفعل الثلاثي مكسور العين سَخِرَ وهو فعلٌ لازمٌ يتعدّى لمفعوله بحرف الباء أو حرف الجر مِنْ، وهو ما نجده في المعاجم اللغوية العربية؛ فقد ورد تحت مادة سَخِرَ: " سخرتُ منه أسخرُ منه سَخَرًا بالتحريك ومسْخرًا وسخْرًا بالضم. قال الأخفش: سخرتُ منه وسخرتُ به وضحكتُ منه وضحكتُ به وهزئت منه وهزئتُ به ". (الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار، 1990، صفحة 680).

وجاء في لسان العرب تحت المادة نفسها: " سَخِرَ منه وبه سَخْرًا وسَخَرًا ومسْخَرَةً وسُخْرًا بالضمّ وسَخْرَةً وسِخْرِيًا وسُخْرِيًا وسُخْرِيَةً: هَزِئَ به... يقال سَخِرْتُ منه ولا يقال سَخِرْتُ به. قال الله تعالى: لا يسخَرْ قومٌ من قومٍ. وسَخِرْتُ من فلانٍ هي اللغة الفصيحة... الجوهري: حكى أبو زيدٍ سَخِرْتُ به، وهو أردأ اللغتين. وقال الأخفش: سَخِرْتُ منه وسخِرْتُ به، وضحِكْتُ منه وضحِكْتُ به، وهَزِئْتُ منه وهَزِئْتُ

به، كلٌّ يقال. والاسم السُّخْرية والسُّخْري والسِّخري، وقُرئ بهما قوله تعالى: لِيَتَّخِذَ بعضهم بعضًا سُخريًا " (المصري، صفحة 352، 353).

وجاء في كتاب أساس البلاغة: " سخِرَ فلانٌ سُخْرةً وسُخَرَةً ويضحك منه الناس ويضحك منهم" (الزمخشري، 1997، صفحة 443).

فما يلاحظ هنا أنّ السخرية ترتبط في معناها اللغوي بالضحك والاستهزاء من شخصٍ معيّنٍ، ليكون محطّ استهزاءٍ قصد الأذية والحطّ من قدره، وإن اختلفتْ أسباب ذلك في تأثيرها على نفس المستهزئ به.

وإذا قرأنا ما جاء في محكم التنزيل من آيات مختلفة وردتْ فيها كلمة سخرية وإن باشتقاقاتٍ متعدّدةٍ وصيغٍ عديدةٍ، لوجدناها مذكورة في العديد من المواضع وتفيد مثل هذه المعاني اللغوية المرتبطة بالضحك لأنّ الاستهزاء والسخرية والهزء مدعاةٌ للضحك عادةً وهو ما جاء في تتمة بعض الآيات، كقوله تعالى: " إنْ تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون". هود 38. وقوله: " لا يسخرْ قومٌ من قومٍ". الحجرات 11.

والأصح – حسب رأي جمهور اللغويين والنحاة- قولنا: يسخَرُ منه، عملاً بما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: " فيسخرون منهم سخِرَ منهم". المؤمنون 110. والسخرية هنا تحمل معنى الجهل والاستهزاء لقوله تعالى: " إنّما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم". البقرة 14.

وقد كان النبي (ص) يضيق بما يقول ويفعل الكفّار والمشركون، لذلك كان الله تعالى يضرب له الأمثال بمن سبقه من الأنبياء ومسلك الكفّار معهم كذلك، كقوله تعالى: " ولقد أُسْتُهْزِئ برسُلٍ من قبلك، فَحَاق بالذين سخِروا منهم ما كانوا به يستَهْزئون". الأنعام 10. ويؤكّد الله تعالى نصرته لنبيّه في قوله: " إنّا كَفَيْناك المستَهْزئين". الحجر 95. وقوله تعالى أيضًا: " فيسْخَرون منه سخِر الله منهم ".

البقرة 79. وقوله تعالى: " الله يَسْتَهْزِئ بهم ويَمُدُّهم في طغيانهم يَعْمَهون". البقرة 15.

وهنا يمكن أن نعرف مقدار السخرية على النفوس وشدّة فتكها بها، مثلما اتّخذها الكفّار سلاحًا لإيذاء النبي (ص) والمؤمنين.

2 .2 اصطلاحًا: لمفهوم السخرية هنا ارتباطٌ وثيقٌ بالمعنى اللغوي بما نجده من معانٍ ودلالاتٍ في الكثير من الآثار الإغريقية والرومانية التي ارتبطتْ بكلمة إيرون Iron في الملهاة اليونانية بمواقف هزلية تبعث على الضحك والاستهزاء المفضي للألم النفسي، فكانت: " وصفًا للأسلوب في كلام إحدى الشخصيات بالملهاة اليونانية القديمة المسمّى بـ Eiron وكانت هذه الشخصية تتميّز بالضعف والقصر مع الخبث والدهاء، كما كانت دائمًا تتغلّب على شخصية اللازون Alazon الفخور الأحمق، وذلك عن طريق الخداع وإخفاء ما يمتاز به من قدرةٍ وذكاءٍ" (المهندس، 1984، صفحة 198).

ويكون ذلك بأسلوبٍ مميّزٍ في الكلام ويكون فيه إيحاءٌ صريحٌ وضمنيٌّ يعكس الموقف، كما تبناه سقراط وأفلاطون وأرسطو وكثيرٌ من الفلاسفة بعدهم في محاوراتهم التي تميّزتْ بالتظاهر بالجهل وإخفاء الذكاء والبرهنة على الرأي للتسليم به آخرًا. فهي بذلك: " منهجٌ جدليٌّ يعتمد على الاستفهام مع التظاهر بالجهل بقصد جعل الطرف الآخر في المحاورة يدلي برأي خاطئ يضطّر إلى تصحيحه بنفسه" (المهندس، 1984، صفحة نفسها).

لذلك كثيرًا ما نجد السخرية مرتبطةً بالجوانب البلاغية، لأنّها طريقةٌ في الكلام يعبّر بها الشخص عن عكس ما يقصده بالفعل: " تتمثّل السخرية في منهجٍ جدليٍّ يعتمد على الاستفهام بمفهومه البلاغي، إذ يُعتبر طريقةً في توليد الثنائية والتعليم على البعد المعرفي" (علوش، 1985، صفحة 110).

وترتبط السخرية بالجوانب النفسية والانفعالية عند الإنسان: " باعتبارها تحتاج إلى تعبيرٍ" (موريس، 2010، صفحة 131). لذلك نجدها ملازمةً للكراهية والدهشة والاستهزاء والانتقاص من قيمة وقدر الآخر، وتسعى لبيان المواقف وتعرية الزيف والخطأ بطريقةٍ معيّنةٍ، فتكون بنقدٍ وهجاءٍ وتلميحٍ أو تصريحٍ وتهكّمٍ ودعابةٍ وتعريضٍ... وهي بذلك تدلّ على سعة ثقافة الساخر ومقدرته اللغوية حين ينوّع في دلالات الكلمات المستعملة لسانيًا ونفسيًا: " فالسخرية وإن ارتبطتْ دلالاتها بالهزء والتحقير إلا أنّ إتقانها يستدعي ذكاءً وفطنةً شديدين لا يتوفّران في أيٍّ كان، لذلك تعتبر بعدًا كبيرًا بين المثالية والواقع، فلا يمكن لجميع الناس أن يكونوا ساخرين وإلاّ فقدتْ جودتها" (السلمي، 2021، صفحة 379، 380). وقد جعلها كثيرٌ من الأدباء والكتّاب والفلاسفة منهجًا لهم في آثارهم.

تمتزج السخرية بالهجاء وإن اختلفا في طبيعتهما ومادتهما، لأنّ الهجاء طريقةٌ مباشرةٌ في الهجوم على العدو، لكن السخرية طريقةٌ غير مباشرةٍ، وترتبط بالاستخفاف والمداعبة والتعريض والضحك والهزء والتندّر والتهكّم والتذليل: " ففي السخرية لينٌ أشبه بلين الأفاعي، والساخر أفعى ليس له صوتٌ حين يسير أو حين يسخر ولكنه يقتل بسخريته" (طه، 1979، صفحة 13). لذلك فهي أعظم صور البلاغة عنفًا وإخافة لما تُظهره من معنًى عكس ما يظنّه الإنسان... لذلك نجدها عادةً عند كبار الأدباء والنقاد والفلاسفة منذ القديم وهي سمةٌ ملازمةٌ لهم في ممارساتهم، مثلما يظهر مع شعر الملاحم والتراجيديات القديمة والكوميديا وحتى في الخطب الواعظة، حين تقوم على نبراتٍ متفاوتةٍ ومؤثّرةٍ لا يمكن الاستهانة بها مطلقًا. وهذا ما يجعل: " السخرية –في بعض الأحيان- سمةً دالّةً على قمة اليأس" (طه، 1979، صفحة 14). لأنّ عذوبة السخرية تكمن في جمال طرافتها، ومرارتها تتجلّى في عمق انتقاداتها.

وترتبط السخرية عادةً بالنقد المضحك والتجريح الهازئ في تصوير الإنسان بواسطة التشويه قد يصل حدّ الإيلام والإيذاء النفسي أو تكبير عيوبه الجسمية أو الحركية أو العقلية بطريقةٍ خاصةٍ... وقد يعمد الساخر إلى الموازنة والمفاضلة بين الجيّد والرديء وبيان محاسن ومساوئ الشيء كما تقتضيه الحال، ومن ثمّ يعمد لبيان نتائج ذلك، بما يظهر اختلاف وتعدّد أسباب ذلك عنده: " الساخر المقلّد ينقل شخصية المقلَّد برمّتها ويجعلها رداءً يلبسه ويتماجن به كيفما شاء، فكأنما هو يتمسّخه" (طه، 1979، صفحة 37). وعذا ما يجعلها تعتبر سلاحًا أقوى من السبّ والضرب والعراك لأنّ مثل هذه الوسائل نجدها عند الإنسان الضعيف شخصيًا ونفسيًا حين ينتقل غضبه إلى لسانه وعضلاته، عكس الإنسان الجلد الذي يستخدم مهارات عقله ليستهزئ به بطريقةٍ خاصّةٍ ويُشعره أنّه أقلّ منه بما يسبّب له إيلامًا.

من جانبٍ آخر، قد تتولّد السخرية نتيجة تعالي الشخص في نفسه وفكره حتى قد ترتبط بعُقَدٍ معيّنةٍ كعقدة أوديب والنرجسية والمازوخية... وينتج عنها شعورٌ بالغرور والعبث لنقد ما في المجتمع أو الإنسان من أي نقائص ومفارقاتٍ... ويرى نفسه حين ذاك ذا عين بصيرةٍ نافذةٍ في الأعماق تتناول الإصلاح بالإضحاك، فيتمثّله مرضًا يسعى لعلاجه وإن بالتنفيس عمّا يشعر به، وإن بالغضب والاشمئزاز ليعبّر عن انفعالٍ مركّبٍ يقضي إلى الراحة والسعادة أخيرًا لأنّه ينتج استرواحًا ورضًا.

ويجب على الساخر أن يتميز بمجموعة ميزات تؤهّله للإبداع في ممارسة السخرية قولاً وفعلاً، إذ: " يجب أن يكون قوي الأعصاب يحمل في طيّاته روح اللامبالاة أو المجون، كذلك لابدّ له من أن يكون على قدرٍ كبيرٍ من الذكاء وقوّة المخيّلة أو الخيال الهازل الذي يمكنه من اقتناص أو ابتداع الصور النادرة التي يستطيع بها إغاظة خصمه من جهةٍ وإضحاك نفسه والناس منه من جهةٍ أخرى"

(طه، 1979، صفحة 19). وإنّ مثل هذه الصور الساخرة يبتدعها الفنان بإضافة لمسةٍ من خياله وروحه الهازئة: " فيصبغها بصبغةٍ فنيةٍ جديدةٍ أو يجعلها تنبض بنبضٍ يلفت نظر من لم يكن ملتفتًا إليها أو تزيد لفت نظره إليها" (طه، 1979، صفحة 35). أي أنّه يضيف شخصيته وفكره وعبقريته إلى صوره الساخرة ليخلقها من جديدٍ.

3 . خصائص السخرية: استخدم العرب السخريةَ كغيرهم من الشعوب والأمم، وكان من أكثر من امتاز بهذا الطابع من الشعراء: حسّان بن ثابت، الحطيئة، جرير، الفرزدق،... وقد كوّنوا مدرسةً هجائيةً ساخرةً (طه، 1979، صفحة 83 وما بعدها)، وتلاهم عددٌ آخر في العصر العباسي شملتْ السّخرية أسلوبَهم وموضوعاتهم أمثال بشار بن برد، أبي نواس، حمّاد عجرد، ابن الرومي، الجاحظ، المعري، بديع الزمان الهمذاني...

إنّ السخرية باعتبارها خطابًا نقديًا يقوم على الاستهزاء، فإنّ لها قدرة تعبيرية هائلة في الأفكار والمقاصد والأهواء، فهي تقوم على ألفاظ لها دلالات مختلفة عمّا هو موجودٌ في الأصل بما يراه الساخر من منظوره الخاص ورؤيته الفكرية الخاصة في نقل وطرح مواقفه: " فالخطيب الساخر لا يروم الهزء بقدر اهتمامه بتصويب الخطأ وإقرار الحق في نصابه من خلال إسناد الوضع بمقومات الوجود وإصباغه بقيم المجتمع والعمل على توجيهه نحو الكمال المنشود" (كوريفة، 2019، صفحة 72).

وقد ارتبطت السخرية بالجوانب الأخلاقية التي تهدف لزرع القيم الفاضلة والنبيلة ودرء القيم الذميمة ونبذ الأفكار الخاطئة وإدانة أصحابها والمتعاملين بها. وذلك قصد إعادة النظر في كلّ ما هو سائدٌ من أفكارٍ وممارساتٍ ومعتقداتٍ... لذلك نجد السخرية تقوم على مكوّن انفعالي يرتبط بالاستحسان أو الاستهجان، ومكوّن بنائي يرتبط بالدلالات المترتّبة عنها؛ ذلك أنّ هذه السخرية تقوم على

الهجوم وإدانة الخصوم في أقوالهم وأفعالهم لأنّها لا تتماشى ورؤية الساخر من جهةٍ، وملابسات الموقف الذي يستثمرها بشدّةٍ لتُبين عن مقصديّةٍ فاعلةٍ. أي أنّها تضطلع بمهمةٍ فاعلةٍ خدمةً للنظام الاجتماعي والأخلاقي الذي يسير عليه كلّ مجتمع، وتعمل على التنبيه لمساوئ الأمور حتى يتمّ تفاديها، لذلك فغالبًا ما تكون ذات طابعٍ تأثيريّ إيذائيّ.

وقد جعلها كثيرٌ من الأدباء والكتاب والفلاسفة منهجًا لهم في آثارهم ومواقفهم قصد الإبانة عن مواقف وقضايا تخص الناس والمجتمع وإن بطريقةٍ مناقضةٍ حتى يصل إلى ما يريد معرفته. فالسخرية بذلك خطابٌ مباشرٌ موجّهٌ يسعى للتأثير في العقل، ويكون هجاءً أو توبيخًا أو ازدراءً أو تجاهلاً أو تهوينًا أو استصغارًا... فكلّما كانت السخرية أشدّ سخطًا كانت أشدّ إيلامًا ووقعًا، ذلك أنّ حدّة الأسلوب أو لينه تحدّد مستواها.

4 . خصائص السخرية عند المعرّي: أصيب المعري بالجدري وهو في الرابعة من عمره أفْقَدَهُ بصره، ما أثّر عليه كثيرًا، وعلى الرغم من ذلك فقد كان ينهل من العلوم نهلاً غزيرًا كما عُرف عنه. ومعروفٌ أنّ المعري كان ذا ثقافة موسوعية ترتبط بالإلمام بجوانب عديدةٍ من التراث العربي القديم، كما أنّه متشبّعٌ بتعاليم الإسلام مثلما يظهر في طرق حياته وعيشه وتفكيره. وقد أضفى على كتاباته طابعًا من السخرية والفكاهة وروح الدعابة وإن امتزجت في مضمونها بنقدٍ لاذعٍ يكشف طبائع الناس ونواياهم وطرق تفكيرهم، فقد تميّز بكونه: " شخصية مرهفة الحس يقظة الوجدان" (طه، 1979، صفحة 243). لكنه لم يختلف عمّن سواه ومن كان حوله إلاّ في: " شدّة حساسيته وما يتبع حرمانه من نور عينيه. أمّا فيما عدا هذا فلعلّه كان حسن العشرة، يجالس الأصدقاء والخلّان يشركهم أحاديثهم ويبادلهم تفكيهم ويأخذ من أطراف الحياة بنصيبٍ ما" (طه، 1979، صفحة 243).

إنّ سخرية المعري تسعى لهدفٍ أخلاقي واضح يتمثّل الفرد في علاقته بأفراد المجتمع في الدنيا، وما آلتْ إليه أعمالهم من ثواب وعقاب في الآخرة وهم يتحاورون ويتشاورون ويتناقشون... وفي سخرية المعري في محاوراته نوعٌ من البرهان والحجاج الهادف؛ فنجده عادةً يقدّم لها تبريرًا عقليًا يراه على وجه الصواب، وإن خرج فيه بين الجدّ والهزل، وهي سمةٌ هامةٌ في كثيرٍ من كتاباته نظرًا لما امتاز به من ثقافة موسوعية وتأثّره الكبير بثقافات عصره المختلفة. كما أنّ الأسلوب الذي يقوم على التأثير هو طريقةٌ بلاغيةٌ محضةٌ عند القدامى تعكس قدرة الأديب وتمكّنه من اللغة وقدرته على الغوص في أعماق ومكنونات النفوس ومعرفة جوهرها للتحكّم فيها.

وقد تجلّتْ فلسفته وتأمّلاته العميقة ونظراته الثاقبة في كثيرٍ من كتاباته، بما فيها رسالة الغفران التي كتبها ردًّا على ابن القارح الذي أرسل إليه رسالةً وراجيًا منه الردّ عليها حوالي سنة 424هـ، وقد نشبتْ بينهما خصومةٌ لسبب غير معروفٍ حقيقةً، لدرجة أنّ المعري أمطر عليه وابلاً من أشعار الهجاء، وكان ابن القارح هو: " الذي لابدّ وأن يكون الباعث الأوّل الذي حرّك أبا العلاء إلى ما خاض في دروب رسالته، وما جعله يتقمّص شخصية الهازئ الأكبر من الدنيا ومن فيها" (طه، 1979، صفحة 245). وهكذا ندرك الظروف النفسية الخاصة التي حدتْ بأبي العلاء إلى أن: " يدبج رسالته متعاليًا على الشيخ الفاني المغرور -ابن القارح- الذي أحاط المجون باسمه ولا شكّ" (طه، 1979، صفحة 247). فبدا طغيان الهجاء والتهكم والاستهزاء على سخرية المعري فيها بوضوحٍ شديدٍ، وقد تنوّعتْ في أساليبها ومواضيعها كما سنبيّنه لاحقًا.

إن رسالة الغفران: " تحوي محاولة إظهار البراعة اللغوية والأسلوبية من خلال اللفظ المختار والجملة الرصينة أحيانًا، والاستطراد إلى أفكار جانبية وعرض لما يختزنه عقل ابن القارح من بعض مصطلحات طائفة من العلوم الكيميائية

والرياضية وغيرها، والاستشهاد بالأمثال ونصوص الشعر المحفوظة والأخبار الأدبية" (طه، 1979، صفحة 248). ويقصد المعري في رسالة الغفران للسخرية والتهكم دون مبالاةٍ للمشاعر أحيانًا، وهو ما قد يجعل الطرف الآخر في حالة ذهولٍ وتعجّب بطريقة مباشرة وغير مباشرة. وقد يستمرّ في بسط السخرية مستدلاً على ذلك حتى يكشف منطقه الخاص في التفسير والتفكير.

والقارئ لهذه الرسالة يدرك بسهولةٍ قوّة البرهان عند المعري، بم يعكس تجربته وسعة اطلاعه وعمق تفكيره المنطقي وإن فاق فيه الخيال والمنطق، إذ يكثر في أسلوبه وفي حواراته الحجاج المنطقي كما والعناية بكثرة الشواهد من قرآنٍ وحكمٍ وشعرٍ...

وما يلاحظ على شخصياته هو عنايته بهم كعنايته بجودة أدبهم وذوقهم الفني والفكري المتميّز، حتى تكون حواراتهم ومناقشاتهم هادفةً تصل حدّ التصادم والتعارض أحيانًا، لينتصر لفكره أخيرًا مهما كان ويتفوّق عليهم بالحجّة والبرهان مستطردًا ما كان من معلومات وأفكارٍ... مما يدلّ على سعة عقله وتفكيره الفلسفي الذي استوعب ما كان من علوم عصره، وما فاقهم فيه حتى خلّفه للاحقين وإن لم يجيدوا فيه كإجادته.

وحين يعبّر المعري عن أفكاره نجد قوّة الإحساس والإدراك الذي أطلق فيه العنان لخياله الواسع كي يتمثّل الأشياء بمنظاره وإن خالف الحقيقة والمنطق، ولتكون أقرب إلى ذهن المستمع والقارئ وأكثر تأثيرًا فيه لفظًا ودلالةً: " والساخر حين يسخر يعتمد كلّ الاعتماد على خياله العابث الذي يتقصى من صور السخرية ما يراه مسعفًا له على إدراك غايته، وهو التنكيل بخصمه أو الوصول إلى هدفه في اقتلاع رذيلةٍ من الرذائل بفنّه الساخر" (طه، 1979، صفحة 48).

5 . فلسفة السخرية في رسالة الغفران: حين يصل المعري للردّ على رسالة ابن القارح يضع نصب عينيه أوّلاً كلّ ما تضمّنته الرسالة من أفكارٍ وأسلوب؛ فيحاول

المعري استصغار شأنه بأسلوبٍ رمزي إيحائي وغير صريحٍ ليخبر عن حقدٍ لألفاظ يراها غريبة عند كثيرٍ من الشعراء، حتى يبدأ في السخرية من ابن القارح بمدحٍ ينمّ عن الذم في حقيقته، مثلما يتّضح في قوله الذي يشكف نقدًا ساخرًا بأسلوبٍ مميّزٍ في بسط فكرته والتعبير عن رأيه إزاء هذا الموقف حتى يكون أقرب للفهم والاستيعاب، وهي أقرب إلى السخرية بالمحاكاة والتقليد في الكلام: " وصلتْ الرسالة التي بحرُها بالحكم مسجورٌ، ومن قرأها لا شكّ مأجورٌ، إذ كانتْ تأمر بتقيّل الشرع وتُعيبُ من تركَ أصلاً إلى فرعٍ. وغرقتُ في أمواج بِدَعِها الزاخرة، وعجبتُ من اتّساق عقودها الفاخرة، ومثلها شفعَ ونَفَعَ، وقربَ عند الله ورُفعَ" (البستاني، 1991، صفحة 20).

ويمضي مواصلاً سخريته منها تاركًا العنان لخياله الرائع المليء بالسجع، مشبّهًا كلماتها بالشجر الفردوسي والكلمة الطيبة كأنّها المعْنيّة بقوله تعالى: " ألمْ ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أصلها ثابتٌ وفرعها في السماء تُؤتي أُكْلها كلّ حينٍ بإذن ربّها ". سورة إبراهيم، آية 29، 30. فيقول المعري هازئًا: " وفي قدرة ربّنا جلّتْ عظمته أن يجعل كلّ حرفٍ منها شبح نورٍ لا يمتزج بمقال الزور، يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين، ويذكره ذكْرَ محبٍّ خدينٍ، ولعلّه سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريجَ من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء وتكشف سجون الظلماء" (البستاني، 1991، صفحة 20، 21).

إذ يتّخذ المعري السخرية هنا نقدًا لاذعًا رجاء التقويم والإصلاح والوقوف على كان سيئًا، ويرى نفسه سيّد الموقف والحكم العادل من الواجب الاضطلاع بما يقول، فيسوق سخريته بأسلوبٍ يزاوج بين بعض الأضداد، فينعتُ ابن القارح بأفضع الصفات وينهال عليه خصمًا غريمًا يعرّي سوءاته وينعته بأبشع الخصال ويتطاول لإبراز مساوئه، وهنا: " يكون التصوير مضحكًا ساخرًا بسبب الألفاظ

ذاتها، إذ هي التي تبعث على الهزء والسخرية لرنينها وتنافر حروفها، أو لأنّها قوية التعبير عن نفسية الذي يصوّر أو يمسخ أو يحاول التعبير عنه" (طه، 1979، صفحة 42).

والسخرية هنا بذلك تحرّض على التأمّل في المواقف والأفكار المعروضة، والتفكير في العوارض والنتائج، لأنّها: " إحدى المقوّمات التي تسهم بفاعلية في إقرار الحق في نصابه كونها أسلوبًا يجعلها تعلق الأنفس البشرية بالمهانة والصغار من النقائص التي تهبط بالإنسان دون الكرامة وقيم المجتمع النابضة بالحياة" (كوريفة، 2019، صفحة 74).

ولعلّ من أهم سخريات المعري من ابن القارح هو ترفّعه عن ذكر قضايا قد ذكرها ابن القارح ورآها المعري ليس لها موضعٌ يدعو إلى سردها في الرسالة مثل تلك التي تخصّ الجواري الثيب والبكارى: " فإنّها تدلّ على صدورها عن شيخٍ مهترٍ لم يرْعَ حرمةً لسنٍّ ولا لمكانة أبي العلاء حتى يحشو رسالته بهذه الأباطيل التي كان يعرفها أبو العلاء عن البشر وعن ابن القارح ولا شكّ في شبابه أو كهولته. ولكنّه ولا شكٍّ يستبعد صدورها عن شيخٍ كابن القارح ذي السبعين عامًا، وهو الذي كان يجد ربه أن يكون أكثر وقارًا وأبعد همّةً إلاّ إذا كان قد خرف وأهتر" (طه، 1979، صفحة 248). فأي قيمة وفائدة لرسالة ابن القارح حتى تعرج بها الملائكة، وحتى تكون كلِمًا كثيرًا ومقدّسةً أثيرةً؟؟؟

ويبدأ المعري في إدخال ابن القارح إلى الجنة ثم الجحيم؛ فيعرض ما في جنّته من نعيمٍ كالأشجار والأنهار والخمور وأنهار العسل: " وكأني وقد غُرس لمولاي الشيخ الجليل إن شاء الله، بذلك الثناء، شجرًا في الجنة لذيذ اجتناء. كلّ شجرةٍ منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب بظلٍ غاطٍ ليستْ في الأعين كذات أنواطٍ" (البستاني، 1991، صفحة 21، 22). وفي هذا الموضع يطالعنا هازئًا بخصمه، فنجده يبرع في التلاعب باللغة والكلمات وهو يرتشف منها أعلى درجات البيان

والفصاحة والبلاغة، وهو يستشعر أحاسيس خصمه ويثير خصمه ويثير لواعجه الكامنة وراء أسىً دفينٍ يكشف براثن نفسه وعمق شعوره، فنلفيه يمعن بشدّةٍ في الاستهزاء من الخصم مثلما يتجلى في هذا القول.

وما يمكن أن نلاحظه هنا في قول المعري أيضًا هو مناسبة اللفظ للمعنى، وهذا يعكس حسن استخدام الكلمات والتلاعب بها في ما له من حسن التصوير والتمثيل للمواقف المناسبة والمضحكة، وهي طريقة حجاجية في وصف الأحوال. على أنّ هذا الأسلوب يكشف وصفًا مضحكًا وتهكمًا صريحًا ومحاججة ساخرةً، ما يجعل فيها تشويقًا ومبالغةً ممزوجةً بالمتعة والإفادة والجديّة في تأكيد الفكرة.

أمّا القسم الثاني من الرسالة فيجعلها ردًّا مباشرًا على ابن القارح بالتفصيل في كلّ ما ذكره، ويضرب عنه صفحًا بم يدلّ على تفاهة ابن القارح عند المعري فيتهكّم منه بسخريةٍ رائعةٍ تنمّ عن تندّرٍ هازئٍ عجيبٍ: " فهو الشيخ الهرم الذي ضرب في أعماقه روح ماجنٍ لا يستحقّ إلاّ التندّر المستمرّ" (طه، 1979، صفحة 251). فنظرًا لشناعة الفعل نجد المعري يندفع من السخرية إلى الهجاء مصرّحًا بعيوبه ومشعرًا بخطورته، ويمضي مواصلاً في تعرية نفاقه وخبثه، لتتوسّع دائرة النقاش ويشتدّ الخصام.

بعدها يجد ابن القارح نفسه في الجنة وقد بدأ يتلاعب به المعري راويةً للأخبار في الدنيا، ويلتقي بروّاة الشعر في الآخرة مع طائفةٍ من الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين، ويجعله يلتقي في مجلسٍ بطائفةٍ من النحاة والرواة وكبار الشخصيات، ويعرض بعض ما قيل من شعرٍ في الحياة الدنيا، بعدما اعترف بعظمة لسانه أنّه شُقي في الدنيا بجمع الأدب دون فائدةٍ لأنّه كان يتقرّب به إلى الرؤساء: " وكان أهل العاجلة يتقرّبون به إلى الملوك والسادات، فجئتُ بشيءٍ منه إليك لعلّك تأذن لي بالدخول من هذا الباب" (البستاني، 1991، صفحة 47).

كما يذكر بطله ابن القارح بيتين من الشعر للبكري، يهتف هاتف قائلاً : أتشعر أيها العبد المغفور له لمن هذا الشعر؟ فيقول الشيخ: نعم حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم : يتوارثون ذلك كابرًا عن كابرٍ حتى يصِلُوه بأبي عمرو بن العلاء فيرويه لهم عن أشياخ العرب".

وفي مثل ذلك يسوق المعري موقفًا مماثلاً بطريقةٍ ساخرةٍ جدًّا تجعلنا نتابع سياق الحوار، لنستكشف فيه براعة التعبير والتصوير حين كان يدعو الله تعالى أن يمتّعه بأدبه في الدنيا والآخرة، وهذا منتهى التهكّم عند المعري. وحين يلتقي ببعض ندامى الجنة من علماء اللغة والنحو، يسخر من موقفه: " وكأني به إذا استحقّ تلك الرتبة بيقين التوبة، وقد اصطفى له ندامى من أدباء الفردوس" (البستاني، 1991، صفحة 27).

والأسلوب المستخدم هنا في السخرية هادفٌ لبيان فكرته المركزية التي يفضحها كثيرًا حتى في نزهته في الجنة مع أحاديث شعراء أمثال الأعشى وزهير بن أبي سلمى وعبيد بن الأبرص وعدي بن زيد وأبو ذؤيب الهذلي والنابغتان ولبيد... وفيها كلّها سخرية خفية من ابن القارح باعتباره المعلّم الراوي هنا من جهةٍ وبم عُرف به من مجونٍ وشرب الخمر وتفنّنه في وصفها بم ليس له مثيلٍ. كما تعكس نبرة الصوت أيضًا عند القراءة جانبًا من السخرية حين يتمّ رفع الصوت أو خفضه أو بإحداث تعابير تنمّ عن ذلك. وهذا يدخل في باب الذمّ الذي يشبه المدح أو تجاهل العارف كمعالجة الشيء الحقير على أنّه عظيمٌ أو العكس.

وفي القسم الثاني يذكر المعري يوم الموقف ودينونة ابن القارح بعدما قام من القبر للحساب ووجد حسناته قليلة، فارتأى نظم أبياتٍ في رضوان خازن الجنة بتتبع الأوزان حتى أفناها ولم يجدْ عنده مغوثةً، حتى ناداه بأعلى صوته وسمع ما يقول: " أنا رجل لا صبر لي على اللواب، وقد استطلتُ مدّة الحساب ومعي صكّ بالتوبة وهي للذنوب كلّها ماحية، وقد مدحتك بأشعارٍ كثيرةٍ ووسمتُها باسمك...

فقد استطلتُ ما الناس فيه وأنا ضعيفٌ ولا ريب أني ممن يرجو المغفرة وتصحّ له بمشيئة الله تعالى. فقال: إنّك لَغبين الرأي أتأمل أن أتأمّل أن آذن لك بغير إذنٍ من ربّ العزّة؟ هيهات! هيهات!" (البستاني، 1991، صفحة 46، 47).

ومن سخريته به ما يشبه انصراف خازن الجنة عنه، وانصرافه إلى خازنٍ آخر يقال له زفر فيجعل منه صورة أخرى للسخرية لعدم إجابة طلبه في دخول الجنة بعدما امتدحه بشعرٍ هو الآخر: " لا أشعر بالذي قصدتَ، وأحسب هذا الذي تجيئني به قرآن بليس المارد ولا ينفق على الملائكة، إنّما هو للجان وعلّموه ولد آدم" (البستاني، 1991، صفحة 48).

وهكذا سخر المعري من ابن القارح سخرية لاذعة وهو يتأرجح به من هذا إلى هذا وهذا يستطيب منهم دخول الجنة وهو محاطٌ في الأخير بجارية لفاطمة الزهراء حتى يدخل الجنة في الأخير.

ويخطر لابن القارح أن يصنع مأدبة في الجنان يجمع لها الشعراء المخضرمين والإسلاميين والذين أصّلوا كلام العرب وجعلوه محفوظا في الكتب وغيرهم ممن يتأنس بقليل الأدب فيخطر له أن تكون كمآدب الدّار العاجلة، فتحضر الحور فيها واللّحوم بشتّى أنواعها فيدعو الطّهاة والغلمان من هناك يحضرون المدعوّين من كل صاحبي علم وأدب فيأكلون ما طاب لهم فتجئ السّقاة إليهم والمغنّون، ويتشوّق ابن القارح وهو في مجلسهم للنظر إلى سحابة فينشئها الله... ومن بعد يختلي الشّيخ ابن القارح بحوريتين جميلتين ناصعتا البياض فإذا بهن حمدونة الحلبية التي طلّقها زوجها لرائحة فمها الكريه وتوفيق السّوداء من أبشع النّساء، فيمرّ عليه ملكٌ فيسأله عن الحور العين فيقول له: هنّ على ضربين ضرب دنياوي نقل من حاله إلى الحور، وآخر خلقه اللّه في الجنّة. ويأخذ سفرجلة أو رمّانة أو تفاحة فيكسرها فتخرج منها جارية حوراء حسناء ويسجد في ذلك الموقف ويخطر له أن يسترق النّظر إليها وهو ساجد.

ليبدأ بعدها الطريق إلى الجحيم، فيطّلع على أهل النار وينظر إلى ما هم فيه ويعظّم شكره لله تعالى على النعم، ويقدّم لنا المعري في كل مشهدٍ شاعرًا ممن دخلوا النار أمثال بشار بن برد – امرؤ القيس بن حجر – عنترة العبسي- علقمة بن عبيدة – عمرو بن كلثوم– الحارث اليشكري- طرفة بن العبد – أوس بن حجر– أبو كبير الهذلي- الأخطل التغلبي – مهلهل التغلبي – المرقش الأكبر- المرقش الأصغر- الشنفرى الأزدي- تأبط شرّا – رؤبة – العجاج... وتكون له رحلاتٌ أخرى مع جنة العفاريت تنتهي بالعودة إلى جنة الفردوس.

وبعد الجولة في الجنة، ينصرف ابن القارح إلى متّكئه على مفرش من السندس فيأمر الحور العين بحمله وأن يضعوه على سريرٍ من سرر أهل الجنّة من الزّبرجد والعسجد، والغلمان والجواري يخدمونه فيحلّ على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود وتناديه الثّمرات "هل لك يا أبا الحسن هل لك؟" وأهل الجنّة يلقونه بأصناف التّحيّة: " فكلّما مرّ بشجرةٍ نَضَحتْه أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور، وبمسك ما جني من دماء الفور، بل هو بتقدير لله الكريم. وتناديه الثمرات من كلّ أوبٍ وهو مسْتلْقٍ على الظهر" (البستاني، 1991، صفحة 73، 74).

ليختتم أبي العلاء المعري قصّته الخيالية بقوله: "وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ... وينتهي بهذا المقطع تصوري الجنة والنار وما فيهما، ليبدأ الردّ المباشر للإجابة عمّا طرحه ابن القارح في رسالته، وينتهي المعري من مجمل الرّسالة خاتما إيّاها بالاعتذار من مولاه الشّيخ الجليل لتأخير الإجابة، بسبب عوائق الزّمن التي منعتْه. وكانت فيها سخريةً أيضًا لأنّه مستطيعٌ بغيره كما قال، فإذا غاب الكاتب فلا إملاء.

وهكذا يمكن القول أننا نرى في الرسالة عمومًا سخريةً ضاحكةً من ابن القارح في شخصه وسلوكه ومعاملاته وتفكيره: " فكانت رسالته ابن القارح سببًا في

إطلاق تلك السخرية اللاذعة من معقلها الذي استكنتْ فيه دهرًا طويلاً منذ صار رهين المحسنين، تلك السخرية التي صارت لحمة الرسالة وسداها من خيوطها" (طه، 1979، صفحة 256).

إنّ الرسالة جميلةٌ في أسلوبها وتراكيبها ومعانيها ومضامينها الخفية: " حتى تخاله ساخرًا من السخر مترفّعًا عن الاهتمام بإظهار قصده لشدّة استخفافه وقلة مبالاته" (طه، 1979، صفحة 256). وأغلب الظن أنّها كانت حالات نفسية تنتاب شخصية أبي العلاء الحساسة والمرهفة فتتكيّف بها آراؤه وفكره وخياله الفيّاض: " فيرى أنًا قد اقترب من هاوية الكفر ويرى آنًا آخر قد رجع وأناب... وقد كتبتْ رسالة الغفران غالبًا في ظروفٍ سيطرتْ عليه وأحاطتْ به، فخيّل إليه أنه في قمّة الجمال الإنساني وصار ينعر إلى الناس من علٍ وكأنّهم إزاءه قد انحدروا إلى هاوية الانحطاط والضعة" (طه، 1979، صفحة 257). فكانت سخريته من ابن القارح كسخريته من الناس والمجتمع ليس فقط في رسالة الغفران، بل حتى في كتاباته ودواوينه الشعرية.

6 . خاتمة:

يُعتبر استخدام السخرية في رسالة الغفران عند المعري آليةً حجاجية يقوم عليها الفكر الفلسفي عنده، وقد اعتمدها لدفع العقل للتفكير والتدبير بحسنٍ وعقلانيةٍ، فبدا ذلك واضحًا من كثرة الحجاج المنطقي بإيراد كثيرٍ من الشواهد من القرآن والحديث الشريف والشعر الفصيح.

نلفي السخرية عند المعري تقوم على حجاج الخصوم بما يراه مناسبًا لهم ولمواقفهم وأفعالهم، وإن جمعتْ في طياتها طرافةً وعذوبةً وروعة أسلوبٍ وجمال بيانٍ، تُجلي في مجملها شخصية المعري الفيلسوفية الشاعرة كما قيل عنه حقًا، حتى في أقواله التي تشير إلى روحه الساخرة في ثنايا ما كتب لتكون فقط عيّنة من أدبه الساخر

7 . قائمة المراجع:

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري. لسان العرب. بيروت، لبنان: دار صادر.

أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري. (1997). أساس البلاغة، تحقيق محمّد باسل عيون السود. (الطبعة الأولى، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

إسماعيل بن حماد الجوهري. (1990). تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار (المجلد الطبعة الرابعة). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

إسماعيل بن حماد الجوهري. (1990). تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطّار (المجلد الطبعة الرابعة). بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

سعيد علوش. (1985). معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)، الطبعة الأولى. بيروت، لبنان: دار الكتاب اللبناني.

طوني بينيت، لورانس غروسبيرغ، ميغان موريس. (2010). مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ترجمة سعيد الغانمي (المجلد الطبعة الأولى). بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

عبد اللطيف مرزوق السلمي. (2021). ظاهرة السخرية في الخطاب البصري، رسوم الكاريكاتير في الصحف السعودية أنموذجًا. مجلة الكلم ، المجلد السادس (العدد الثاني)، الجزائر.

فؤاد إفرام البستاني. (1991). أبو العلاء، رسالة الغفران، درس ومنتخبات. الجزائر: شركة الشهاب.

فيصل كوريفة. (2019). السخرية في الخطاب النقدي الجزائري المعاصر، محمّد الهادي الحسني أنموذجًا. مجلة الكلم ، المجلّد الرابع (العدد الثاني).

مجدي وهبة، كامل المهندس. (1984). معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (المجلد الطبعة الثانية). بيروت، لبنان: مكتبة لبنان.

نعمان أمين محمّد أمين طه. (1979). السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع هجري (المجلد الطبعة الأولى). مصر: دار التوفيقية للطباعة بالأزهر.